



المقدمة:

في ظل الوضع الراهن والخطير الذي تمر به ثورة الشام الكل يبحث عن حلول، الكل ينادي بوحدة الصف واجتماع الكلمة ولعل البعض لم يجد إلى الآن الباب الذي سيلج منه إلى تلك النتيجة.

1- النظر في تجارب الأمة

وإن مما يفيد في ذلك النظر في أحوال من سبقنا، فإن النظر في تاريخ وتجارب الأمة والأمم السابقة هي دعوة إلهية ربانية، وما أكثر أمثلتها في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تبارك وتعالى: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِنْدَهُ لِأُولَئِكَ الْأَلْيَابِ** (يوسف: 111). وقال جل جلاله: **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** الروم: 9.

والأيات في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولقد جمعت سورة الذاريات أخبار أقوام بنى إسرائيل، وعاد وثモود ونوح وإبراهيم وفي هذا ما فيه من الإرشاد الإلهي بأخذ العبرة والعظة ممن سبق.

وكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر لأصحابه أحوال الأمم الماضية فمن ذلك: **"لَقَدْ كَانَ فِي مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ..."**.
البخاري/3689

فهو في ذلك كله يوجه أصحابه وأمتهم للنظر وأخذ العبرة من تجارب من سبقوهم.

2- أعداء الله عذاباً يعذب الله بهم من عصاه

إن أعداء الله من اليهود والنصارى عليهم لعائن الله المتتابعة لما عصوا الله وكذبوا المرسلين وافتروا على الله الكذب وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ضربهم الله بالذلة إلى يوم الدين، فكانوا مشردين محترقين أينما كانوا، لا يقوم لهم سلطان ولا دولة، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفو إلا بحبل من الله وحبل من الناس، فجعلهم الله عذاباً يعذب به من عصاه، لأنهم لا رأفة لديهم ولا رحمة عندهم، أو بحبل من الناس ليضرموا فيهم نيران الحروب لصالحهم الشخصية كما هو الواقع اليوم، وقد قضى الله سبحانه أن يمكنهم في الأرض فيفسدوا فيها مرتين وتكون لهم دولة تعلو علوًّا كبيراً، كما قال تعالى: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَعَلَّنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)** الإسراء: 4

قال ابن كثير - رحمه الله -: **"أَيُّ يتجبرون ويطغون ويتجرون على الناس"** تفسير ابن كثير 47/5، يسلطهم الله على من يشاء من عباده بلاء وامتحاناً ثم يسلط عليهم من عباده من يسومهم سوء العذاب، كلما أودعوا ناراً للحرب أطفأها الله لأنهم يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين، ولكنه يجعلهم عقوبة على من يستحق العقوبة، فهم دائماً وأبداً يحوكون المؤامرات ويعقدون التدوات العلنية والسرية لكيد المسلمين ويخططون للقضاء عليهم والاستيلاء على أنفسهم وأموالهم ويراقبون المسلمين مراقبة دقيقة لينتهزوا الفرصة فيهم لينقضوا عليهم، وقد علموا من واقع التاريخ أنه لا قوة لهم على المسلمين ما

داموا متمسken بدينهم، ولكن لما رأوه زاهدين في دينهم غير مهتدin بهديه وقد تمكنت منهم الدعایات المضللة حتى رموا الإسلام بالنقش، واستمدوا نظام حياتهم من القوانين الوضعية، شمروا عن ساق الجد وانقضوا عليهم كالأسد الصائل قد فطر الغيط والحد أكبادهم غير مبالين بكثرة عددهم.

أين الأندلس وخيراتها؟! أين فلسطين وجناتها؟ أتخلى عنها أهلها طائعين ورضوا بأن يكونوا لاجئين مقهورين، تؤخذ أموالهم، وتستباح دمائهم؟ لا والذي فطر السموات والأرض ولكن حاقت بالأمة ذنبها وغفلتها عن ربها، وتهاونت بأوامر الله حتى صارت إلى ما صارت إليه، يقول الله تعالى: (قُلْ مَا يَعْنِي بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاكُمْ) الفرقان 77.

وإن ما أصابنا اليوم من تسلط الأعداء وتأخر النصر وتكالب الأمم هو بسبب ذنبنا.

إن التهاون بأوامر الله والمداهنة في دين الله سبب للهلاك، وسبب لرد الدعوات وتسلط الأعداء..

أين نحن اليوم من الصلاة التي هي عمود الإسلام؟

أين نجد أبناءنا عند النداء بحثي على الصلاة؟

أفي المساجد أم في الشوارع أم مع المخالفين في البيوت؟

كنا في زمن الراحة نشكو من قلة المصليين في صلاة الفجر، أما اليوم ونحن في زمن الشدة والحال أن يزيد الإقبال والاتصال بالله فصرنا نشكو من قلة المصليين في جميع الصلوات.

إذا كان هذا حالنا مع الصلاة التي هي أظهر وأعظم شعائر الإسلام، فكيف بما دونها من الفرائض؟!

إن حظ العبد من الإسلام بقدر حظه من الصلاة، هي صلاة لأنها صلة بين العبد وبين ربه في كل يوم وليلة يناجيه خمس مرات متظهراً متوجهاً إليه خاضعاً بين يديه يمجده ويثنى عليه ويستعينه ويستهديه في كل ركعة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) الفاتحة 5. ويستغفره من ذنبه ويعرف له بعيوبه مقرأً بـألهيته وعبوديته، شاكراً له على سوابق نعمه ممتثلاً ما أمره بقوله: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر 60، فيكون قد استحق من الله الإجابة لأنه لا يخالف المعاد.

أما إذا أعرض العبد عن الله وانغمس في شهواته واتخذ إلهه هواه وسخط على الله وسخط على الخلق ولم يقبل عن الله أمره ولا حكمه ولا بلاءه ولا نعماه وكله الله إلى نفسه وخلى بينه وبين أعدائه..

نعود بالله من الخذلان والبعد من الرحمن..

فالحذر الحذر أن يكلم الله إلى أنفسكم ويختلي بينكم وبين أعدائكم، فالله الله عباد الله،

اعتصموا بحبل الله واغضبوا لغضبه وارضوا لرضاه ولا تداهنا في دينكم وتتقاعسوا عن واجبكم وجهازكم، ردوا المظالم إلى أهلها، وتضرعوا إلى الله بكشف البلاء فالمؤمن عند البأس يتضرع، ولا تكونوا من قنوات قلوبهم، (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَانَ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام 43

إن كلاً منكم مسؤول أمام الله، واعلموا أن الذنب إذا خفي لا يضر إلا صاحبه، وإذا ظهر ولم يغير عم الجميع، (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الأنفال 25.

لقد تساهل كثير من شبابنا اليوم وجانبو المساجد إلا من هدى الله، وتجرأت نساء كثير منا على التبرج ومخالطة الرجال، وهذا الذي يسبب مقت الله، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، ولو قام كل فرد منا على من تحت يده لصلاح وصلحوا،

ولكن لما ترك الحبل على الغارب استهانوا به وزينت لهم أنفسهم ما صنعوا، يقول -صلى الله عليه وسلم- : **(إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعذبهم الله بعقاب)** ابن حبان/305 وغيره وصححه الألباني.

يقول ابن تيمية رحمه الله: (فَلَمَّا ظَهَرَ النَّفَاقُ وَالْبَدْعُ وَالْفَجُورُ الْمُخَالِفُ لِدِينِ الرَّسُولِ سَلَطَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، فَخَرَجَتِ الرُّومُ النَّصَارَى إِلَى الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَأَخْذُوا التَّغْوِيرَ الشَّامِيَّةَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْئٍ إِلَى أَنْ أَخْذُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي أَوَّلِ أَخْرَى الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ، وَبَعْدَ هَذَا بِمَدَةٍ حَاصِرُوا دِمْشِقَ وَكَانَ أَهْلُ الشَّامَ بِأَسْوَأِ حَالٍ بَيْنِ الْكُفَّارِ النَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ الْمُلَاهِدَةِ إِلَى أَنْ تَوَلَّ نُورُ الدِّينِ الشَّهِيدَ وَقَامَ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَارِهِ وَالْجَهَادِ لِأَعْدَاءِهِ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ بِهِ مُلُوكُ مِصْرَ بْنُو عَبْدِ عَلِيٍّ النَّصَارَى فَأَنْجَدُوهُمْ، وَجَرَتْ فَصُولُ كَثِيرَةٍ إِلَى أَنْ أَخْذَتِ مِصْرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ عَلِيٍّ، أَخْذَهَا صَالِحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ سَادِي وَخَطَبَ بِهَا لِبْنَيِ الْعَبَّاسِ، فَمَنْ حَيَّنَ ظَهَرَ الْإِسْلَامَ بِمِصْرَ بَعْدَ أَنْ مَكَثَتْ بِأَيْدِيِ الْمُنَافِقِينَ الْمُرْتَدِينَ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ مِائَةَ سَنَةٍ.

إِلَى أَنْ قَالَ :

فَلَمَّا ظَهَرَ فِي الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَزِيرَةِ الْإِلْحَادُ وَالْبَدْعُ وَالْفَجُورُ سُلْطَةُ الْكُفَّارِ، وَلَمَّا أَقَامُوا مَا أَقَامُوا مِنِ الْإِسْلَامِ وَقَهَ الْمُلْحِدِينَ وَالْمُبَدِّعِينَ نَصَرُهُمُ اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هُنَّ أَذْلَّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الصَّفَرُ 12-13.

وَكَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَهْلُ الْمَشْرُقِ قَائِمِينَ بِالْإِسْلَامِ كَانُوا مُنْصُورِينَ عَلَى الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْتُّرْكِ وَالْهَنْدِ وَالصِّينِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مَا ظَهَرَ مِنَ الْبَدْعِ وَالْإِلْحَادِ وَالْفَجُورِ سُلْطَةُ الْكُفَّارِ. الفتاوى 13/178

3- نقطة مشتركة بين كل مراحل انتكاس الأمة

فخذ على سبيل المثال الهجمة الصليبية على بلاد المسلمين، وكذا غزو التتار، وكذا الاستعمار الحديث لبلادنا، وكذا الإرهاب الأسودي على شعبنا، نقطة الارتكاز الأساسية فيها هي عامل الضعف الداخلي في المجتمعات، المريضة قليلاً.

فمن أعاذه التتار وإنكليلز والفرنسيين...، إلا الخونة والجبناء.

من هم أعاون النظام المجرم اليوم إلا مرضى القلوب بل موتى القلوب من أبناء هذا البلد، كانوا في صفة وفي خط الدفاع عنه قبل الروافض وقبل الروس وقبل غيرهم.

إن الناظر في كل الانتكاسات الحادة التي مرت بها أمتنا وعلى مر التاريخ البعيد والقريب، القديم والحديث، ليجد أن النقطة المشتركة بين كل الأسباب هي الضعف الداخلي لأفراد الأمة وهو العلة الرئيسية، فالضعف الداخلي ناتج عن أمراض القلوب، فالذى يخون أمهاته ويعمل لصالح أعدائها، إنه لا بد ولا محالة مريض قلب..

ومن مرض القلوب غياب فقه التعامل مع البلاء عن الناس، وغياب فقه الصبر، وفقه الجهاد، وفقه التضحية، وفقه البذل، وفقه الإيثار، وفقه تقديم مصلحة الإسلام على المصالح الشخصية، وفقه التعلق بالله وبقدرته وأنه على كل قدير بدل التعلق بالأسباب المادية وحدها وترتيب النتائج عليها.

وإذا ما عرفنا أن القلوب المريضة هي نقطة الارتكاز في كل مصائب الأمة على مر تاريخها، أيقنا حينها أهمية قول النبي صلي الله عليه وسلم: **(أَلَا وَإِنِّي فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)**.

والصلاح والفساد لا يعم الفرد وحده بل يعم الأمة برمتها.

وصلاح القلوب بالإيمان بالله ومعرفته ومحبته والإيمان به والتوكيل عليه وعبادته وطاعته، ففي ذلك حياة القلب الحقيقية قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ فَلَبِهِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ) التغابن 11.

وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيْكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) الأنفال 24.

ومنطلق هذه الاستجابة هي القلب: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) الحديد 16.

والقلوب كما هي بقية الأعضاء تمرض ومرضها الذنوب ودواؤها التوبية، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعِبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكَةً سُودَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدٌ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوْ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ، كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطافين 14. الترمذى/ 3334 وحسنه الألبانى.

فيما من تبحث عن الدواء لقلبك اسمع هذا النداء: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) يونس 57.

إذا وصلنا بالنتيجة إلى أهمية القلب، وعظم شأنه، أدركنا لماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عن البغضاء وفساد ذات البين - ذلك المرض القلبي - أنها الحالة.

روى الإمام الترمذى في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِيَاكُمْ وَسُوْءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالَةُ) الترمذى/ 2508 وحسنه الألبانى.

وفي الأدب المفرد: "أَلَا أَحَدُكُمْ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّيَامِ، صَلَاحٌ ذَاتِ الْبَيْنِ، أَلَا وَإِنَّ الْبَغْضَةَ هِيَ الْحَالَةُ". الأدب المفرد/ 112، وصححه الألبانى.

فما أحوجنا اليوم في الشام المباركة من صفاء القلوب وصلاح ما بيننا، فهذه هي بوابة العبور الأولى حتى نصل إلى وحدة الصدف وجمع الكلمة وننقذ أمتنا من جحيم الفرقة وخطورة ذلك.

المصادر: